الترجمة بين حضارتين العربية والغربية في العصور الوسطى *

إن النظرة المتأنية فى تاريخ شعوب البحر المتوسط، بضفتيه الشرقية والغربية تؤكد لنا حقيقة هامة، وهى وجود تباين لغوى وثقافى وعقائدى، بين شعوب هاتين الضفتين، أدى فى كثير من الأحيان إلى حدوث صراعات عسكرية بينهما.

ومما يوضح هذه الحقيقة قول إيرنست باركر، أستاذ علم السياسية بجامعة كمبردج «وقولنا الصراع بين الشرق والغرب لم يكن إلا تبسيطاً جغرافياً لسلسلة معقدة من الوقائع التاريخية.

والتاريخ سجل لأشياء أجل أثراً من تنازع الأمم على بقاع من الأرض على أن ذلك إنما يزداد وضوحاً واتساعاً حين نطرح ظاهر النضال بين الشرق والغرب، وننظر إلى جوهره الذى كان يتلون من عصر إلى عصر مضطرم مما بين الديانات والشعوب والمدنيات المتنافسة» (١).

ويبدو هذا بشكل واضح فى العصور الوسطى، التى شهدت مظاهر عديدة، من علاقات التأثير والتأثر، بين الحضارة العربية والحضارة الغربية، والتفاعل القوى بينهما.

---

* محاضرة ألقيت فى مؤتمر حوار الحضارتين العربية والغربية عبر المتوسط، الذى عقد بجامعة بيروت العربية فى الفترة من ٧ - ٩ مايو ٢٠٠١.

وقد كانت الترجمة بمثابة جسر ربط هاتين الحضارتين ووسع دائرة الاتصال بينهما.

فمع بزوغ شمس الحضارة العربية، قامت حركة الترجمة إلى العربية عن بعض الثقافات الأجنبية آنذاك، كالفارسية والهندية، واليونانية التى تعد إحدى مكونات الحضارة الغربية.

وذلك فى أواخر عصر بنى أمية، وأوائل عصر بنى العباس.

أما الترجمة عن اليونانية سواء فى لغتها الأصلية، أم عن طريق بعض اللغات الأخرى، فقد بدأت فى شكل محاولات فردية كمحاولة خالد بن يزيد ابن معاوية ٨٥ هـ دراسة كتب الصنعة أى الكيمياء، أملاً أن يكتشف سر تحويل المعادن إلى ذهب وقد استعان فى ذلك، ببعض اليونانيين الذين جاءوا إلى مصر وتعلموا العربية.

ويتضح هذا من قول صاحب الفهرست «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً فى نفسه، وله همة ومحبة للعلوم.

خطر بباله الصنعة فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة»[٢].

ومن هذه المحاولات الفردية محاولة فى عهد عمر بن عبد العزيز ومحاولة فى عهد هشام بن عبد الملك[٣].

وهذه المحاولات الفردية، لم تكن لها برامج محددة، ولم تحظ بإشراف الدولة، أو أى مؤسسة علمية بها، كما حدث في عهد الخليفة العباسى المنصور، الذى تبنى حركة الترجمة وجعلها موضع اهتمام الدولة، ومن ثم وضعت لها البرامج وحددت لها الأهداف، وأعد لها خيرة المترجمين فى هذا العصر.

وكان الاهتمام فى هذه المرحلة من الترجمة التى يطلق عليها المرحلة الأولى أو الدور الأول[٤]، موجهاً نحو كتب الفلك والطب[٥]، ثم واصل هذا النشاط العلمى، الخليفة هارون الرشيد، وبانتهاء عهده تنتهى المرحلة الأولى من الترجمة، وتبدأ المرحلة الثانية بخلافة المأمون ، وتنتهى بنهاية القرن الثالث الهجرى[٦].

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من بداية القرن الرابع الهجرى إلى منتصف القرن الخامس[٧].

وبعد عهد الخليفة المأمون، عهد ازدهار حركة الترجمة، فقد أنشأ داراً لها أطلق عليها بيت الحكمة، ووضع على رأس المترجمين بها يوحنا بن ماسويه، ثم جددت هذه الدار فى عهد الخليفة الواثق، وعين حنين بن إسحاق، رئيساً عليها.

والواقع أن الترجمة عن اليونانية سواء بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر، قد نشطت فى عهد المأمون، واتسع نطاقها فلم تعد مقصورة على كتب الطب والفلك، ولكنها تجاوزت ذلك فشملت كتب الفلسفة والمنطق والرياضيات.

وقد توافرت هذه الكتب بعد عودة أعضاء البعثة العلمية التى أوفدها الخليفة المأمون إلى بلاد الروم، للحصول على مزيد من كتب الأوائل.

يقول صاحب الفهرست «فإن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم، يسأله الإذن فى انفاذ ما من مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع.

فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم»[٨].

ثم يشير بعد ذلك إلى أن أعضاء هذه البعثة العلمية جاءوا من هناك «بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات فى الفلسفة، والهندسة، والموسيقى»[٩].

وربما يرجع اتساع نطاق الترجمة فى هذه الفترة إلى بعض التوجهات الفكرية، التى كانت تتبناها الدولة، وتروج لها مثل مذهب الاعتزال، ذى النزعة العقلية.

فمن الثابت تاريخيًا أن المعتزلة، كانوا من أوائل المفكرين المسلمين الذين اطلعوا على التراث اليونانى، وخاصة المنطق الأرسطى.

وكان هدفهم من وراء ذلك تدعيم وجهات نظرهم فى الحجاج الدينى بأدلة عقلية منطقية، وخاصة بعد أن رأوا بعض أصحاب الديانات والعقائد غير الإسلامية، الذين يناقشونهم فى مسائل دينية، قد تسلحوا بالمنطق اليونانى، لذا كان من الضرورى، أن يتسلحوا بهذا السلاح القوى،

ليدحضوا الحجة العقلية، بحجة عقلية منطقية[١٠].

وعلاوة على ذلك، فقد كان المأمون محباً للنظر، شغوفاً بالاطلاع على على علوم الأوائل، وخاصة الطبيعيات، والإلهيات والمنطق، وكثيراً ما كان تتردد أسماء هذه العلوم في مجالسه، وكان يطلب من التراجمة، نقلها إلى العربية[١١].

ويبدو أن معظم التراجمة الذين قاموا بنقل مثل هذه العلوم اليونانية الأصل إلى العربية، كانوا من السريان، يقول دي بور «والذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي يكادون جميعاً يكونون من السريان.

وقد نقلوا ما نقلوه إما عن التراجم السريانية القديمة أو عن تراجم أصلحوها هم، أو قاموا بها من جديد»[١٢].

وهذا ما يذهب إليه المستشرق الإنجليزي نيكلسون حيث يقول : «وكان عمل الترجمة يقتصر برمته على السريان إذ ترجمت كتب أرسطو، وجالينوس، وبطليموس وغيرهم من الأساتذة القدامى في صوامع الشام والعراق، وقد أعيد ترجمة هذه الترجمات السريانية فيما بعد إلى العربية»[١٣].

ويتضح من النصين السابقين أن السريان كان لهم دور علمي قبل الإسلام، يتمثل في ترجمة بعض الكتب اليونانية إلى السريانية، وتعليم هاتين اللغتين ، وذلك في القرن الرابع الميلادي، حيث كان لهم في الشام

والعراق وما يجاورهما، خمسون مدرسة، تدرس فيها العلوم بالسريانية واليونانية[١٤].

ومن أشهر هؤلاء التراجمة السريان يوحنا بن ماسويه، وكان على رأس المترجمين في عهد هارون الرشيد، ويوحنا البطريق مولى المأمون، وكان أمينا على الترجمة في عصره ، ومع أنه كان بكئ اللسان في العربية، فقد ترجم كثيراً من كتب الأوائل.

ومنهم حنين بن إسحاق، وكان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه ، ويستدل من تاريخ حياته، أنه تعلم العربية وأتقنها كما أتقن اليونانية كذلك.

ويذكر أنه كان يقوم بمراجعة ما نقل المترجمون إلى العربية ويشبهه في ذلك، قسطا بن لوقا البعلبكى الذى كان فصيح اللسان باليونانى والسريانى والعربى[١٥].

وعلى أية حال، فيبدو أن هؤلاء التراجمة السريان كانوا يقومون بترجمة الكتب السريانية ذات الأصول اليونانية إلى العربية، أما الكتب اليونانية التى لم تترجم إلى السريانية فقد كانوا يقومون بترجمتها إلى السريانية، ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية.

وليس من الضرورى أن يقوم مترجم النص اليونانى بترجمته إلى العربية، فقد يحل محله مترجم أخر.

ويتضح هذا من فحوى كلام ابن النديم، عن ترجمة كتب أرسطو الثمانية إلى العربية.

يقول «الكلام على قاطيغورياس بنقل حنين بن إسحاق، الكلام على بارى أرمانيوس : نقل حنين إلى السريانى، وإسحق إلى العربى، الكلام على أنا لوطيقا الأولى، نقله ثيادروس إلى العربى، ويقال عرضه على حنين فأصلحه.

الكلام على أبو ديقطيقا وهو أنا لوطيقا الثانى مقالتين ، نقل حنين بعضه إلى السريانى، ونقل إسحق الكل إلى السريانى، ونقل متى نقل إسحق إلى العربى.

الكلام على طوبيقا : نقل إسحق هذا الكتب إلى السريانى، ونقل يحيى بن عدى الذى نقله إسحق إلى العربى، ونقل الدمشقى منه سبع مقالات ونقل إبراهيم بن عبد الله الثامنة، وقد توجد بنقل قديم.

الكلام على سوفسطيقا ومعناه الحكمة، نقله ابن ناعمة وأبو بشر متى إلى السريانى، ونقله يحيى بن عدى إلى العربى.

الكلام على ريطوريقا : ومعناه الخطابة يصاب بنقل قديم، وقيل إن إسحق نقله إلى العربى، ونقله إبراهيم بن عبد الله، فسره الفارابى أبو نصر.

الكلام على أبو طيقا ومعناه الشعر : نقله أبو بشر متى من السريانى إلى العربى ونقله يحيى بن عدى، وللكندى مختصر فى هذا الكتاب»[١٦].

ولما كانت معظم هذه الكتب المترجمة، ليست منقولة عن النص الأصلى بل عن نص سريانى نقل عن النص اليونانى الذى هو فى الواقع النص

الأصلي، فقد تجشم بعض المترجمين كثيراً من العناء، في سبيل نقل عبارات النص المترجم نقلاً أمينًا، وقد كان هذا يضطرهم الالتزام بحرفية الترجمة وتقديم «التعبير عن ألفاظ المؤلف إلى التعبير عن معانيه، فقد تتفق لهم إصابة المعنى مع الحرص على اللفظ، وقد يؤدى بهم الحرص على اللفظ إلى استغلاق المعنى»[١٧]. وفضلاً على حرفية نصوص هذه التراجم، فقد حفلت لغتها بكثير من الألفاظ العامية والدخيلة، وقد ادى هذا إلى اتسام لغتها بقدر ليس بالقليل من الغموض وعدم الوضوح.

وقد يكون هذا أحد الأسباب التي دفعت بعض الفلاسفة المسلمين مثل الفارابي وابن سينا، وابن رشد، إلى إعادة النظر في بعض نصوص هذه الترجمات وشرحها، أو تلخيصها في أسلوب واضح، مع تدعيم ذلك بشواهد من الشعر العربي[١٨].

ويظهر أن هذا هو الذي دفع بعض المعاصرين مثل شكري عياد وعبد الرحمن بدوي، وإبراهيم سلامة، إلى إعادة ترجمة بعض كتب أرسطو مثل كتاب الشعر، وكتاب الخطابة عن النص الأصلي[١٩].

ومهما يكن من أمر، فيلاحظ أن معظم الكتب ذات الأصول اليونانية التي ترجمت إلى العربية، كانت كتب علوم وفلسفة ومنطق، ولم تتضمن فنونًا أدبية، ويؤكد صحة هذا الرأى، قول صاحب كتاب تاريخ العلم، عن الذين أثروا في الفكر العربي عن طريق الترجمة إنهم «كانوا على وجه التحديد العلماء الذين كتبوا في الطب والفلك، والرياضيات والفلسفة»[٢٠].

وتعد هذه العلوم فى رأيى إحدى أسس النهضة العلمية، التى قامت على دعائمها الحضارة العربية.

ولست مغاليًا حين أقول إنها أساس قوى من أسس التقدم العلمى فى أى عصر من العصور، وفى عصرنا الحديث بنوع خاص.

وهذا يدلنا دلالة واضحة على القيمة العلمية للترجمة، وعلى حسن اختيار أسلافنا للمادة المترجمة.

ولو قارنا هذا بقلة عدد ما يترجم إلى العربية من كتب العلوم فى عصرنا الحديث بالقياس إلى كثرة ما يترجم من كتب التسلية، وإزجاء الفراغ، لأدركنا سر تأخرنا عن ركب التقدم العلمى الذى قطعت فيه كثير من الأمم والشعوب الواعية أشواطًا بعيدة.

وعلى كل حال، فعلى الرغم من أن الترجمة عنيت بالجانب العلمى وكذا الفلسفى، وأغفلت الجانب الأدبى، فقد أثرت فى اللغة العربية وآدابها تأثيرًا واضحًا.

حيث وسعت من دائرة المعجم اللغوى وأمدته بثروة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات العلمية والفلسفية.

كما أسهمت بعض العلوم المترجمة كالمنطق، فى تقنين بعض العلوم اللغوية والأدبية، وتطور المصطلح النقدى والبلاغى

وقد ذكر بعض أساتذة البحث الأدبى المعاصرين شواهد عديدة على تأثر تراثنا الأدبى بالثقافة اليونانية، التى كانت الترجمة إحدى وسائل نقلها

إلى هذا التراث[٢١].

وطبعى أن تتأثر الثقافة العربية بهذا الفكر الأجنبى الذى وصل إليها عن طريق الترجمة، ويسرى فى عروقها، فتصطبغ بعض ملامحها بصبغته العقلية.

ولاشك أن هذه الثقافة كان ينهل من معينها طلاب العلم وأعلام العصر، وعلى رأسهم المبدعون من الشعراء والكتاب ، ولذا فليس من الغريب أن تترك هذه الثقافة أثرًا لا يستهان به فى إبداعات بعض الأدباء، فينحون فى أدبهم منحى عقليًا فلسفيًا على نحو ما نجد فى كتابات بعض كتاب النثر فى العصر العباسى، وفى أشعار بعض شعراء هذا العصر[٢٢].

ويبدو هذا بشكل واضح فى صيغ هؤلاء الشعراء، وأخيلتهم الشعرية[٢٣].

ولا ينبغى أن نغفل أثر هذا الاتجاه الفلسفى فى حركة تجديد الشعر العربى التى بدأت فى القرن الثانى الهجرى، وأدت إلى انقسام الشعراء والنقاد إلى محافظين ومجددين، وقد كان من بين المآخذ التى أخذها المحافظون على المجددين من الشعراء، محاولتهم صبغ الصياغة الشعرية، بالصيغة الفلسفية والمنطقية[١].

وقد عبر البحترى وهو أحد الشعراء المحافظين عن هذا الموقف بقوله :

كلفتمونا حدود منطقكم

فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج الـ

منطق ، ما نوعه ، وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته

وليس بالهذر طولت خطبه[٢٥]

ومهما يكن من أمر، فهذه شواهد واضحة على ما أحدثته الترجمة من تأثير مباشر، أو غير مباشر فى تراثنا الأدبى.

ومن المعروف أن هذا التراث والتراث العلمى، الذى تأثر فى نشأته وتطوره بالترجمة ، يمثلان جانباً هاماً من جوانب الحضارة العربية.

لذا يمكننا القول بأن الترجمة عن اليونانية قد أسهمت إسهاماً فعالاً فى إرساء دعائم الحضارة العربية.

أما عن التجربة من العربية إلى بعض اللغات الأوربية فى العصور الوسطى، فيحسن بنا أن نقدم للحديث عنها، بوصف الحالة العلمية والثقافية لأوربا قبل اتصالها بالحضارة العربية سواء عن طريق الترجمة أم عن طرق أخرى.

وليكن شاهدنا على ذلك قول أحد أساتذة الحضارة من الغربيين واصفاً الجدب الثقافى الذى كانت تعانى منه أوربا فى العصور الوسطى، فى الوقت الذى كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها.

يقول : «إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد حين كانت

الحضارة الإسلامية في أسبانيا ساطعة جداً، رأينا مراكز الثقافة في الغرب، كانت أبراجاً يسكنا سنيورات متوحشون، يفخرون بأنهم لا يقرأون.

ودامت همجية أوربا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادى عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فولوا وجوههم شطر العرب، الذين كانوا أئمة وحدهم»[٢٦].

لذا لم يكن غريباً أن يشعر بعض ذوى الفطنة من الأوربيين بأهمية الثقافة العربية، ويسارعون إلى نقل أمات كتبها إلى لغاتهم، ومن ثم قامت حركة الترجمة من العربية إلى بعض اللغات الأوربية، وخاصة اللاتينية في العصور الوسطى، ونشطت في القرن الثانى عشر الميلادى، حيث كان لها مراكز في أسبانيا، وجنوب إيطاليا.

ومن أبرز هذه المراكز طليطلة، التى ورثت قرطبة في احتضانها للثقافة العربية[٢٧]، وأنشأت بها دار للترجمة تحت رعاية كبير أساقفتها رايموندو[٢٨]، الذى كان يجيد العربية واللاتينية، وألف في ذلك، معجماً باللاتينية والعربية، وبعض الكتب المستقاة من الثقافة العربية، مثل شرح الرمز، وخنجر الإيمان ضد المسلمين واليهود[٢٩].

ويقال إن هذا الأسقف جمع عدداً من المترجمين في عصره وطلب منهم نقل عيون التراث العربى إلى اللاتينية، وخاصة كتب الرياضيات، والفلك، والطب، والكيمياء، والطبيعة، وما وراء الطبيعة، والمنطق والسياسة[٣٠].

ومن أشهر مترجمى مدرسة طليطلة جُنْديسالفى Gundislavi وكان أحد كبار كنيسة طليطلة، ويوحنا بن داود الأسبانى الذى كان يهوديًا ثم تنصر.

ويبدو أن بعض مترجمى هذه المدرسة كانوا يقومون بترجمة النص العربى إلى اللغة الأسبانية الدارجة أو القشتالية، ثم يقوم مترجمون آخرون بنقله إلى اللغة اللاتينية.

ويظهر أن هذه المرحلة الثانية من ترجمة النص العربى، كان يقوم بها كبار المترجمين الذين يتقنون اللاتينية مثل جُنْديسالفى، ويوحنا بن داود.

وقد ارتفع شأن مدرسة طليطلة، وتسابق علماء من جنسيات أوربية مختلفة لاقتفاء آثار مترجمى هذه المدرسة.

مثل جيراردو القرمونى Geradio Ciremona الذى ترجم بعض المؤلفات العربية فى الطب والفلك، ومايكل سكوت Micchael Scot الإنجليزى الذى نقل كتب أرسطو وابن سينا إلى اللاتينية.

وهرمان الألمانى Hermanas الذى ترجم كتاب الخطابة وكتاب الشعر لأرسطو، إلى اللاتينية، مستعينًا بالترجمات والشروح العربية لهذا الكتاب[٣١].

ويطلق المستشرق الأسبانى آنخل بالنثيا على هذه الطائفة من المترجمين، اسم المترجمين الغرباء، ويصف نصوصهم المترجمة، بعدم الوضوح، نظرًا لركاكة لغتها اللاتينيه ، ثم يقارن بينها وبين ترجمات كبار

مترجمي طليطلة فيقول : «الفرق بعيد بينها وبين الترجمات الواضحة، البليغة في بعض الأحيان، التي قام بها جنديسالفو ويوحنا الإشبيلي»[٣٢]، ومرد هذا في رأيي إلى إتقان هذين المترجمين اللاتينية والعربية ، وهذا لم يتوافر لدى المترجمين الغرباء، حتى إن بعضهم كان يستعين على فهم النصوص العربية، واللاتينية ببعض المترجمين الذين يجيدون العربية واللاتينية.

لذا ينبغي أن يكون المترجم متقنًا إتقانًا جيدًا للغة النص المترجم، واللغة المترجم إليها النص.

وقد سبق أن لاحظنا معاناة بعض المترجمين السريان في ترجمة بعض النصوص السريانية المنقولة عن أصول يونانية، نظراً لعدم إجادتهم للغة النص الأصلي، وكذا اللغة المترجم إليها النص، وهي اللغة العربية.

وعلى أية حال ، فيبدو أن الاهتمام بترجمة علوم العرب في بعض مدن أسبانيا، قد ازداد في القرن الثالث عشر الميلادي ، وعلى وجه التحديد في عهد ألفونسو الحكيم ملك قشتالة وليون ، الذي كان يشرف بنفسه على هذا العمل، ومن أجله أنشأ في إشبيلية مدرسة لتعليم العربية واللاتينية.

وكان من بين أساتذتها بعض الأساتذة المسلمين الذين يتقنون العربية[٣٣]، كما كان يشرف بنفسه على حركة الترجمة في طليطلة «وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة، ويقوم بترتيبها وتنظيمها، وكان يراجع ما ينجز من الترجمات، ويصلح من أسلوبها»[٣٤].

وأهم ما ترجم في عهده بالإضافة إلى علوم العرب، ترجمة القرآن

الكريم إلى اللغة الأسبانية، وكان قد ترجم إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشرالميلادى ، كما ترجم فى عهده كذلك بعض قصص السندباد ، وبعض الحكم والمواعظ الأخلاقية والسياسية[٢٥].

والواقع أن الاهتمام بالثقافة العربية فى العصور الوسطى، ونقل علوم العرب إلى اللاتينية، لم يقصر على بعض المراكز العلمية فى أسبانيا، بل امتد كذلك إلى جنوب إيطاليا، وصقلية بنوع خاص، فقد واصل النورمانديون حكام جزيرة صقلية بعد خروج العرب منها، هذا النشاط العلمى، حيث نقلوا كثيراً من كتب التراث العربى إلى اللاتينية.

وقد دفعهم إلى ذلك إعجابهم الشديد بالثقافة العربية وحضارة العرب، التى بقيت آثارها فى هذه الجزيرة شاهداً عليهم.

ومن أشهر ملوكهم الذين كانوا ينهلون من معين هذه الثقافة، روجر النورمانى، وقد سار خلفاؤه على نهجه.

ومنهم غليوم الثانى الذى درس اللغة العربية وأتقنها، وكان يتخذ بعض مستشاريه من المسلمين، ويرجع إليهم فى كثير من شئونه الخاصة.

وقد زار الرحالة العربية ابن جبير صقلية فى عهد هذا الملك، وشاهد بنفسه إعجابه الشديد بالثقافة العربية، وبأصحابها.

ويتضح هذا من قوله عن هذا الملك «وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم فى أحواله، والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين.

وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم. ووزراؤه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أصل دولته والمرتسمون بخاصته»[٣٦].

ويضيف إلى هذا قوله عنه «ومن عجيب شأنه المتحدث به، أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمة المختصين به، الحمد لله حق حمده، كما كانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لانعمه»[٣٧].

ومن ملوك أوربا الذين كانوا معجبين بالثقافة العربية، وبسطوا نفوذهم على صقلية، الملك فردريك الثاني، الذى كان على علم بالثقافة الإسلامية فى أصولها العربية[٣٨]، وقد تعلم العربية فى إحدى مدارس صقلية، ويشبه فى اهتمامه بالثقافة العربية وبأصحابها، بالفونسو الحكيم[٣٩].

ومن المعروف أن فرنسيس بيكون الذى ينسب إليه اكتشاف المنهج العلمى فى العصر الحديث عاش فى هذه الجزيرة، ونهل من الثقافة العربية التى كان معجباً بها أيما إعجاب، ويبدو أن هذه الثقافة هى التى أعانته على اكتشافه للمنهج العلمى، الذى عرفه أصحابها قبل بيكون بزمن طويل.

يقول بريفولت «لقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث العلمى التجريبى كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى.

ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية،

في عهدها الهليني.

أما ما تدعوه العلم فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، وطرق من الاستقصاء مُستحدثه لطرق التجربة والملاحظة، ولتطور الرياضيات، إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي»[٤٠].

والواقع أن هذه المناهج العلمية التي أدخلها العرب إلى أوربا كانت كما رأينا ثمرة من ثمار ترجمة علوم العرب إلى بعض اللغات الأوربية، وهنا يكشف عن القيمة العلمية للترجمة.

ومما تجدر ملاحظته أن اهتمام بعض المراكز العلمية في أسبانيا وصقلية بنقل الثقافة العربية إلى بعض اللغات الأوربية، لم يُقْصر على المؤلفات العلمية والفلسفية بل تجاوز ذلك إلى الفنون الأدبية.

وقد حظي الفن القصصي باهتمام كبير من المترجمين، وخاصة القصص ذات المغزى الخلقي، فقد نقل كثير منها إلى اللغة اللاتينية في القرن الحادي عشر الميلادي.

ومن أبرز المترجمين الذين قاموا بهذا العمل موسي سفردي الذي ترجم ثلاثًا وثلاثين قصة عن العربية[٤١].

كما ترجمت كليلة ودمنة إلى اللاتينية عن أصل عربي[٤٢] في القرن الثالث عشر الميلادي، وقدمت إلى ألفونسو الحكيم.

ويقال إن هذه ليست أول ترجمة لكتاب كليلة ودمنة، إلى اللاتينية فقد

سبقتها ترجمة جون أف كابو John of Capua فى القرن الثامن الميلادى، عن أصل عربى كذلك[٤٣].

ومن المعروف أن بعض الكتاب الأوربيين قد تأثروا فى بعض أعمالهم القصصية بهذا الكتاب.

ومن أبرز هؤلاء الكاتب الفرنسى لافونتين، الذى قال فى مقدمة الجزء الثالث من أقاصيصه «ليس من الضرورى فيما أعتقد أن أصرح بالمصادر التى استقيت منها هذه الموضوعات الأخيرة، غير أننى، أقول معترفاً بالجميل، إننى أخذت أكثرها عن بلباى الحكيم الهندى»[٤٤]، ولاشك أن يقصد ببلباى، بيديا مؤلف هذا الكتاب.

ومن ذلك أيضًا، ترجمة قصص ألف ليلة وليلة إلى اللاتينية، قبل ترجمة جالان إلى الفرنسية فى القرن الثامن عشر الميلادى[٤٥].

وقد انتشرت هذه القصص فى الآداب الأوربية فى العصور الوسطى، وتأثر بها بعض الكتاب الأوربيين، آنذاك، ولا يزال أثرها واضحًا فى الكتابات الأوربية الحديثة، كما لاتزال تستحوذ على نفوس كثيرين منهم، ويعلل بعضهم ذلك بقوله «وإنا لنلمح فى ثنايا مغامراتها الغريبة، وخيالها الخصب، أنها خلقية، فى لبابها، ولولا هذه الصفة، لما شغف بها الأوربيون»[٤٦].

وبالإضافة إلى ألف ليلة وليلة، فهناك قصص المغامرات التى ترجم الكثير منها ضمن قصص السندباد، التى عرفت فى أواخر القرن الحادى

عشر باسم السينتباس Sintipas [٤٧] وقصة حي بن يقظان لابن طفيل، التي ترجمها إلى اللاتينية بوكوك بعنوان «الفيلسوف المعلم نفسه»[٤٨].

وهناك لون آخر من فنون النثر العربي، أثر في نشأة بعض فنون النثر الأسباني، ونعني بذلك المقامات التي أثرت في نشأة الروايات البيكارسيكية.

فقد لاحظ بعض الباحثين وجود تشابه فني كبير بين هذين الفنين، فالمقامات تصور حياة الأدباء الجوالين الذين يتذوقون من فنهم الأدبي، لذا يصور بطل المقامات على أنه يتمتع بقدر كبير من الذكاء، وفصاحة اللسان، والروايات البيكارسيكية عبارة عن قصص أسبانية تدور حول حياة المشردين والصعاليك، ويسمى بطلها البيكارون Picaron وهو يتصف بنفس صفات بطل المقامات[٤٩].

ويظهر أن هذه الروايات البيكارسيكية قد أثرت القصص الأدبي الحديث، وخاصة القصص الاجتماعي.

ومن أبرز ذلك جيل بلاس Gil blas للكاتب الفرنسي لي ساج[٥٠].

والواقع أن تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربية في العصور الوسطى، لم يقصر على فنون النثر وحسب، بل تعدى ذلك إلى الشعر.

يقول جب «وربما كان خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب القرون الوسطى أنها أثرت بثقافاتها العربية وفكرها العربي في كلا شعر القرون الوسطى ونثرها»[٥١]. ويبدو هذا بوضوح في ظهور نوع من النثر العاطفي في إقليم البروفانس في جنوب إيطاليا، يختلف في مضمونه، وصياغته الفنية

عن الشعر القديم، وهو أقرب شبهًا بشعر الحب العذرى فى الأدب العربى[٥٢].

ويرى جب أن هذا النوع من الشعر قد انتقل إلى إقليم البروفانس عن طريق الأغانى الشعبية والزجل الأندلسى، وخاصة أزجال ابن قزمان، فهناك أوجه شبه بين هذا الزجل وهذا النوع من الشعر[٥٣].

يضاف إلى ذلك أن الذين اشتهروا بإنشاد هذا الشعر كانوا يسمون بشعراء التروبادور، أى الشعراء الطوافون[٥٤]، ويظهر أن كلمة تروبادور مشتقة من الكلمة العربية طرب[٥٥].

وقد أثر شعراء التروبادور فى بقية شعر شعراء أوربا سواء من حيث الموضوع والمضمون، أم من حيث الشكل الموسيقى[٥٦].

كما أثر الزجل الأندلسى والشعر الغنائى فى الشعر الأوربى كذلك[٥٧].

ومهما يكن من أمر، فهذا يدلنا دلالة واضحة على أن الأدب العربى شعره ونثره، قد أثر فى الآداب الأوربية فى العصور الوسطى تأثيرًا قويًا، بحيث صبغ آداب هذه الفترة بصبغته، يقول جب : «إن تشرب العصور الوسطى بموضوعات الأدب العربى، كان فى الحقيقة يؤلف مظهرًا من مظاهر حركة فكرية عامرة شملت تلك العصور»[٥٨].

يضاف إلى ذلك سيطرة نوع من الخيال الجامح على كتابات كثير من الكتاب الأوربيين.

ويعد هذا عاملاً من عوامل نشأة الحركة الرومانسية يقول وارتون : «إن ذلك النوع من الخيال الجامح الذى تعودنا أن نسميه «رومانتك» لم يعرفه كتاب الإغريق والرومان، ويبدو أن الذين أدخلوه إلى أوربا، أناس كانت أساليبهم فى التفكير، وأحوالهم فى الخلق والإبداع غربية على هذه القارة.

وأغلب الظن أن أولئك الناس الذين أعاروا أوربا هذا الخيال هم العرب»[٥٩].

وعلاوة على هذا كله ، فقد نتج عن ترجمة علوم العرب وآدابهم إلى بعض اللغات الأوربية فى العصور الوسطى تغلغل الثقافة العربية، فى الثقافة الأوربية واستحواذها على عقول الأوربيين ووجداناتهم ، وقد أدى هذا إلى حدوث انقلاب خطر فى الفكر الأوربى، مهد كما يقول المستشرق الإنجليزى جب إلى نشأة النهضة الأوربية الحديثة[٦٠].

ومصداقاً لقول جب ، فإن النهضة الأوربية الحديثة Renascence قامت على دعامتين، إحداهما، إحياء التراث اليونانى ، والدعامة الثانية إحياء التراث اللاتينى، الذى تشرب الثقافة العربية فى العصور الوسطى، وأصبحت جزءاً من نسيجه العام، لحمةً وسدى.

وبناء على هذا كله، يمكننا القول بأن الترجمة عن العربية إلى بعض اللغات الأوربية فى العصور الوسطى أسهمت بقدر كبير فى تشكيل ثقافة هذه الحقبة الزمنية ، وامتد أثرها إلى العصر الحديث وما شهده من إنجازات علمية كثيرة بفضل تطبيق المنهج العلمى الذى يعد إحدى ثمار التفاعل بين الحضارتين العربية والغربية فى العصور الوسطى.

هوامش البحث :

(١) تراث الإسلام The Legacy of Islam الترجمة العربية، الناشر، مكتبة الآداب، ١٩٨٣م، ص ٨١-٨٢.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٣٨، ط دار المعارف بتونس (مصورة عن الطبعة المصرية).

(٣) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦١، تحقيق فؤاد السيد.

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٢، ص ٢٢٧ -٢٢٨، الناشر : النهضة المصرية.

(٥) تراث الإسلام (فارس والعرب)، ص ٩٢ (مجموعة أبحاث لبعض المستشرقين)، الترجمة العربية، الناشر عيسى البابى الحلبى.

(٦) عثمان موافى، التيارات الأجنبية في الشعر العربى، ط الثانية، ص ١١٥، الناشر : دار المعرفة الجامعية.

(٧) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٢، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٨) ابن النديم، الفهرست ، ص ٣٣٩.

(٩) المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(١٠) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٢، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(١١) المسعودى، مروج الذهب، ج٤، ص٢، الناشر : المكتبة العصرية ببغداد.

(١٢) دى بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٢٨ - ٢٩، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(١٣) نيكلسون، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي، ترجمة صفاء خلوصي، ص ١٥٥.

(١٤) جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢، ص ١٤٩-١٥٠. ط : دار الهلال.

(١٥) تراجع تراجم هؤلاء في الفهرست لابن النديم، ص ٣٤١، ص ٤٠٩-٤١٥.

(١٦) الفهرست ، ص ٣٤٧ - ٣٥٠.

(١٧) شكري عياد، كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ص ١٦٨.

(١٨) يراجع في ذلك شروح الفارابي وابن سينا وابن رشد لكتاب الشعر لأرسطو

(١٩) يراجع في ذلك ترجمة شكري عياد لكتاب الشعر، وترجمة عبد الرحمن بدوي لهذا الكتاب، وترجمة إبراهيم سلامة لكتاب الخطابة.

(٢٠) جورج سارتون، تاريخ العلم، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢١) يراجع بحث طه حسين، البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر، المنشور ضمن كتاب نقد النثر، وإبراهيم سلامة، بلاغة العرب بين أرسطو واليونان، ص ٢٨ - ٣٠، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٣، ص ١٤٢، وشكري عياد ، كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ص ٢٥٢ - ٢٨٤.

(٢٢) مثل بعض كتابات الجاحظ، والتوحيدي، وابن العميد، وكذلك بعض أشعار أبي تمام والمتنبي، وأبي العلاء.

(٢٣) راجع كتابي التيارات الأجنبية (موضوع : صياغة الشعر صياغة فلسفة، وخصوبة الخيال).

(٢٤) الآمدي، الموازنة بين الطائيين، راجع مقدمة الكتاب، ط : دار المعارف.

(٢٥) ديوان البحتري، ج١، ص ٢١٩، ط : دار المعارف بمصر.

(٢٦) جستاف لوبون ، حضارة العرب، ص ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٢٧) تراث الإسلام، ج١، أسبانيا والبرتغال، ص ١٧.

(٢٨) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٦، من المجلد الرابع، ص ١٧.

(٢٩) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٤١ (الترجمة العربية).

(٣٠) المرجع السابق، ص ٥٣٧.

(٣١) المرجع السابق، ص ٥٣٩.

(٣٢) المرجع السابق، والصفحة.

(٣٣) تراث الإسلام ، ج١، من ٦٠ - ٦٢.

(٣٤) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٧٥.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٥٧٧.

(٣٦) رحلة ابن جبير، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ط : بيروت.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٢٩٨.

(٣٨) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٦٨، ط : الخامسة (دار المعارف بمصر).

(٣٩) تراث الإسلام، ج١، ص ٥٤.

(٤٠) Briffault : Making of Humanty, p. 120.

(٤١) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٧٩.

(٤٢) وذلك لأن الأصل الهندي لكليلة ودمنة مفقود ومن هنا تأتي أهمية الترجمة العربية.

(٤٣) تراث الإسلام، ج١، ص ١٨٦.

(٤٤) غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ٩٩.

(٤٥) تراث الإسلام، ج١، ص ١٩٦، وراجع كذلك أنخل ، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٩٤ - ٥٩٩.

(٤٦) تراث الإسلام، ج١، ص ٢٠٤.

(٤٧) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٥٨٢ - ٥٨٣.

(٤٨) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٤٩) تراث الإسلام، ج١، ص ١٨٨.

(٥٠) غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ١٠١، وراجع للمؤلف نفسه كتابه النقد الأدبي الحديث، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

(٥١) تراث الإسلام ، ج١، ص ٥٢.

(٥٢) المرجع السابق ، ج١، ص ١٦٠.

(٥٣) غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص ١٠٨.

(٥٤) أحمد أمين، قصة الأدب في العالم، ص ٢١٧.

(٥٥) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٧٠.

(٥٦) تراث الإسلام، ج١، ص ١٧٥.

(٥٧) أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٦١٣ - ٦٢٢.

(٥٨) تراث الإسلام، ج١، ص ١٨٩.

(٥٩) Warton, History of English Poetry VI : Origin of Romantic Fiction, P. a.

(٦٠) جب ، تراث الإسلام، ج١، ص ١٩٠.